مجلة فكرية اقتصادية اجتماعية

في هذا العدد

- كلمة العدد ٢
- أزمة النظام اللبناني ..... د. جورج قرم ٣
- الفلسطينيون في إسرائيل: تحولات الوضع القانوني والقوة السياسية ..... د. عزيز حيدر ١٧
- الفلسفة بين الطبيعة والسياسة ..... د. محمد وقيدي ٤٦
- أزمة النزعة الإنسانية في الفلسفة المعاصرة ..... د. سالم يفوت ٥٩
- اقتصاديات السوق وقضايا التنمية في البلدان المتخلفة ..... د. عبد الأمير السعد ٦٦
- التوجيه التربوي وآفاق التنمية المغاربية المأمولة ..... د. الغالي أحرشاو ٨٥
- مسألة اللطف الإلهي بين معتزلة بغداد ومعتزلة البصرة ..... د. محمد أسعد النادري ٩٤
- هل السعادة ممكنة؟ ..... محمد جمال طحان ١١١
- التراث والقصيدة العربية المعاصرة .... محمد عبد الرحمن يونس ١٢٢
- «المونتاج» والفن الروائي العراقي ..... د. صبري مسلم ١٢٨

السنة التاسعة والعشرون - العدد ٧/٨/٩ - أيار/حزيران/تموز ١٩٩٣
29th Year - N° 7/8/9 May-July 1993

التراث والقصيدة العربية المعاصرة

محمد عبد الرحمن يونس(*)

تعتبر ظاهرة استخدام التراث في القصيدة العربية المعاصرة من أعقد الظواهر الفنية التي تواجه القارىء المتلقي للخطاب الشعري.

وإنْ كانت الظاهرة، في مكوناتها وبواعثها العميقة، ظاهرة صحية تنمّ عن ذائقة جمالية قادرة على استجلاء وكشف تمظهر الوضع التراثي وتأثيراته المختلفة في بنية النص الشعري المعاصر، إلا أنها تسهم إلى حد ما في جعل الخطاب الشعري خطاباً غامضاً وعصياً على الفهم.

فالنص التراثي العربي القديم، نثراً كان أم شعراً، لم يُدرس بعد دراسةً كافيةً ولم يُحقق ويُضبط تماماً حتى الآن. ولئن كانت بعض جوانبه قد دُرست، فإن دراستها كانت محدودة وضيقة وبقيت في إطار المنابر الأكاديمية والمؤتمرات الأدبية. ونظراً لاقتصار هذه الدراسات على نخبة معينة، فإن القارىء العربي لم يستطع أن يتبين بعد الملامح العامة لخصوصية النص التراثي، ونقصد بالنص التراثي مجمل نتاج البشرية شعراً ونثراً وحكايةً واسطورةً وخرافةً وتاريخاً وامثالاً شعبية وفولكلوراً، منذ الزمن القديم وحتى يومنا الحاضر.

والقارىء المعاصر لم يواكب تحولات الظواهر التراثية وتمظهرها في فنون الأدب المعاصرة نظراً لانتشار علاقات الاستهلاك والسلعة في المجتمع العربي المعاصر والتي فرضت غربةً واستلاباً على الذات العربية، وهذه العلاقات السلعية حددت بدورها ابستيمولوجيا معينة لدى معظم الناس، فسادت ثقافة الفيديو والتلفزيون والمجلات والجرائد الرخيصة التي لم تهتم يوماً في تقديم بُنى ثقافية عميقة من شأنها أن تضيء جوانب الإبداع والفكر الإنساني.

إن الثقافة الاستهلاكية السائدة تغطي شرائح اجتماعية عريضة جداً، من أناس عاديين وبسطاء إلى متوسطي الثقافة وحتى إلى حملة الشهادات العالية. وهذه الثقافة تحديداً لم تسهم ولن تسهم في إضاءة البنية العميقة للظاهرة التراثية، وبالتالي تقديمها للمجتمع بصورة حضاريّة وإبداعيّة جديدة، إن لم نقل إن مهمة الثقافة الاستهلاكية تكمن في تخريب

(*) كاتب عربي من سورية، ومدرّس في جامعة صنعاء.

الذوق الجمالي لدى متلقيها، وجعله عاجزاً عن أن يتلمس مواطن الجمال والمتعة في الظواهر الثقافية التاريخية والتراثية وحتى المعاصرة.

يقول أحد النقّاد البارزين عن التلفزيون: «في رأيي الشخصي إنه انحط بالذوق العام وبحس الجمال. وهذا ليس رأيي وحدي، فهناك مفكرون وعلماء غربيون يرون نفس الرأي ومنهم جاكوهان - عالم الاتصال. وهو يفسر فتنة الناس بالتلفزيون بأنه جهاز موضوع معنا في غرف النوم، وهنا يصبح الفرد كما لو كان مع الناس داخله. هذا التقارب الزائد عن الحدّ يُفسد التأثر بالجمال. والثمن خطير في المدى البعيد، سيُعاني منه متوسطو الثقافة بل والمثقف الكبير إذا ما وقف كثيراً أمام التلفزيون»[1].

إن نسبة كبيرة من القراء العرب على قطيعة معرفية مع التراث بحيث يغدو كائناً غريباً مرفوضاً، لأنه لم يُفهم بعد، ولم يقدّم تقديماً موضوعياً وعلمياً، ولأن النظرة إليه مشوبة بالحذر والتردد باعتباره ماضياً سلفياً متخلفاً ليس إلا. وهذه النظرة عمدت إلى طمس جمالياته ومجمل قضاياه الفكرية التي طرحها ودعا إليها، إذ هاجمه القرّاء انطلاقاً من مفاهيم كثيرة منها: الحداثة والمعاصرة؛ التطور التاريخي واستشراف المستقبل، التأكيد على الطاقات التحولية وغير ذلك. إلا أنّ التراث لم يعمل يوماً على انزياح هذه المفاهيم وإقصائها من التجربة البشريّة، لأن الفعل التراثي إذا ما استُلهم في صيرورته الحضاريّة والتاريخية يُشكل فعلاً من شأنه أن ينير زوايا إبداعية في الفكر البشري المعاصر.

صحيح أن في التراث كمّاً كثيفاً متراكباً من مادة جامدة فقدت قدرتها على التأثير في البنية الذهنية للإنسان المعاصر، إلا أن استلهام الموروث التاريخي العربي والعالمي استلهاماً إنسانياً معاصراً، ومحاولة بلورة هذا الموروث والتأكيد على ما هو جوهري خلّاق فيه، وإضفاء طابع الحياة المعاصرة عليه لجدير بأن يخلّص هذا الموروث من الكمّ التراكمي لهذه المادة الجامدة، وذلك بالتركيز على ما هو سامٍ ومتنامٍ وذي قيمة جمالية في هذا الموروث وإسقاط ما فيه من ركاكة. ومن هنا ينبغي التركيز على أبعاد وتحولات هذا الموروث على المستوى الفني والتاريخي والجمالي، مع ملاحظة أن ثمة نصوصاً تراثية كثيرة تخلو من أي تراكم أو جمود، أو حشو لفظي، أو ركاكة أسلوبية، كنصوص ابن عربي، والحلاج، والسهروردي ومحمد بن عبد الجبار النفري وغيرهم، إذ أن لهذه النصوص طاقة الحلم والتخيّل والإبداع ومخاطبة أبعد زوايا النفس البشريّة والتركيز على كل ما هو سامٍ ونبيل فيها.

لقد ساهمت الثقافة الاستهلاكية السلعية في ظل المجتمع البورجوازي العربي، الذيلي والمرتبط بالامبريالية الأوروبية والأمريكية في تغييب التراث وطمس ما هو جمالي فيه باعتباره معادياً لها، فبقي سجين المجلدات لا يعرفه إلا الباحثون المختصّون في علم الحضارة، والتاريخ، والميثولوجيا، والإثنوجرافيا الثقافية والوصفية.

ويُصاب الفرد بالدهشة عندما يجد أن معظم طلاب الجامعة يعرفون أية مطربة أو

---

(١) د. شكري محمد عيّاد: مجلة صباح الخير، القاهرة، العدد ١٦٨٧، ٥ مايو ١٩٨٩، ص ٤٤.

مطرب شاب يغني، أو ممثلة تلوي خصرها وتتأوه من اللوعة والفراق، بينما لو سألت هذا الطالب أو تلك الطالبة عن الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني والعقد الفريد لابن عبد ربه ونهج البلاغة، أو عن شخصيات كالنفري والحلاج وابن عربي وياقوت الحموي وغيرهم، لتأفف وأجابك مستغرباً: «في أي عصر تعيش..؟ ومن هؤلاء أصحابك؟.. إنهم مجرد خرافات ولست مستعداً لقراءتهم»!!

إنّ الثقافة الاستهلاكية لا بد وأن تعكس وضعاً معرفياً بكل مرجعيته الثقافية والفكرية. وهذا الوضع في ظل الاستهلاك وسيادة السلعة لا يمكن أن يكون إلا متدنياً أو منحطاً في ذوقه الجمالي والفني.

وإن المرء ليدهش حينما يسمع معلمة شابة تعلّم طلابها في المرحلة الإعداديّة: أن هنالك شاعراً إيرانياً كبيراً اسمه أبو الفراس الحمداني. فيتساءل أحد الطلبة: «هل هو أبو فراس، أم أبو الفراس؛ وهل هو من حلب أم من إيران يا آنسة؟» فتوبخه بأن يصمت ولا يعارضها كونها نالت أعلى شهادات التربية من إحدى الجامعات العربية العريقة.

إنَ جهلَ معظم القراء بالتراث - وقد ساهم في زيادة هذا الجهل المؤسسات العربية الرسمية ذات الصبغة الحكومية - شكّل لديهم نفوراً من الخطاب الأدبي المعاصر، وخاصة الشعري منه، الذي استخدم ووظّف هذا التراث توظيفاً رائعاً وجمالياً.

ومن الشعراء العرب الذين وظّفوا التراث العربي: صلاح عبد الصبور وأمل دنقل ومحمد عفيفي مطر من مصر، وأدونيس ونزار قباني وفائز خضور من سوريا، وخليل حاوي ومحمد علي شمس الدين من لبنان، وعبد العزيز المقالح من اليمن، وبدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتي وحسب الشيخ جعفر من العراق، وغيرهم كثير.

لقد أضاء هؤلاء الشعراء الظاهرة التراثية بوصفها ماضياً وحاضراً ومستقبلاً في آن من خلال حركيتها وتناميها التاريخي وقدرتها على تمثل الواقع ومعاصرة الجديد فيه من فكر وفن.

ورغم المساجلات النقدية والفكريّة التي طرحها بعض المفكرين العرب، كمحمد عابد الجابري، وحسين مروة، والطيب تيزيني، ومحمد عمارة، وعز الدين إسماعيل وغيرهم، بشأن إشكالية التراث والمعاصرة وما تطرحه من خلافات حادة، فإنّ دراسة البُنية العميقة لتمظهر التراث في الحياة الثقافية المعاصرة لم يتضح بعد، وما زال بحاجة إلى مزيد من البحث الجاد والتقصّي العميق.

قد يقول قائل: إن مفهومي الأصالة والمعاصرة قد أتخما درساً وتمحيصاً. ذلك أمر مقبول وصحيح، لكن المفهومين لا يزالان قادرين على إثارة المزيد من القضايا الفكرية والرؤيوية على مستوى الأدب والفكر والفن، وثمة أسئلة كثيرة بقي الجواب عليها عائماً وفضفاضاً ويفتقر إلى الدقة والعمق ومن هذه الأسئلة: لماذا التراث في الخطابات الأدبية والفكرية المعاصرة؟ وهل التراث عين أم ذاكرة؟.

هل التراث دليل استعراض معرفي للأساطير والخرافات والتاريخ من قبل الشعراء

والأدباء، أم هو بنية عميقة ورؤية للكون والحياة ورغبة صادقة في فهم جوانب التراث المضيئة؟
ما القصيدة الشعرية التراثية المعاصرة؟ أهي إبداعٌ أم مجرد عرض تاريخي، أم هي خروج عن نمطية الأنساق الشعرية التي تكررت مراراً؟.
لماذا التراث ونحن على أبواب عالم راعف مجنون، انتهكت فيه كل القيم الإنسانية والجمالية؟

إن هذه الأسئلة وغيرها قادرة على إثارة إشكاليات كثيرة يصعب حصرها وضبطها. والتراث العربي لا يتحدد بأفق ضيق إقليمي أو قومي أو عربي. إنه ينهل من تراث الإنسانية جمعاء، والحضارات المتعاقبة والمتزامنة من عربية ويونانية وآشورية وبابلية وفينيقية وكنعانية وكلدانية، وأساطير بابل والعراق وسوريا واليمن القديم وشبه الجزيرة العربية، ومصر وأساطيرها الفرعونية القديمة، والسريانية والفارسية والهندية، وتراث أمريكا اللاتينية وغيرها.

وإذا كان أحد النقاد يرى أن التراث يُشكّل «بوجهيه المادي والمعنوي حضوراً حقيقياً ومحاولة للتخلص من إسار التراث، وقوة جذبه هي أحد العناوين الأولى التي تطرحها أي حركة تدّعي الإبداع والتجديد، فالمقال الأول لكل حركة تحديثية هو مقال الرفض للموروث المألوف»(٢). فإنّ ظاهرة الإبداع والتجديد ليست ظاهرة معزولة عن بقية الظواهر الثقافية، والثقافة ككل إنساني متنامٍ لا تُحدَّد بفضاء زماني معين ولا مكاني معين، ولا تتحدد بأية بُنية تاريخية بعينها ومفصولة عن بقية البُنى الأخرى.

التراث ظاهرة ثقافية لا يمكن تجاهل دورها في أنها قدَّمت وتقدِّم بُنيات معرفية، وحقولاً إبداعية متشعبة. والحركة التحديثية والمعاصرة لا تعني أن شرط إبداعها وحداثتها يكمن في رفض الموروث. إنّ تطويع الموروث والكشف عن جوهره، هو من أولى مهمات الحركات الأدبية الحداثية والمعاصرة.

واستعراضنا لبعض النماذج الشعرية العربية سيقودنا إلى أن أجمل هذه النماذج هي التي استفادت من التراث، ونقلته من رؤيته التراثية لتذيبه في الظاهرة الحضاريّة المعاصرة.

واستخدام الموروث في الخطاب الشعري العربي المعاصر يعني العودة إلى الرموز التاريخية والأسطورية. فالرمز ببُنيته العميقة يرتبط بمدلول اجتماعي وإنساني في التاريخ والحياة المعاصرة، ويرتبط بمدلول نفسي في اللاوعي الإنساني للجماعات البشرية. وقلّما نجد رمزاً مفصولاً عن سياق اجتماعي ونفسي معين. فالرمز لا يأتي من خواء، بل إن له مكونات، تفتد إلى البُنية التاريخية والسياسية وأحياناً كثيرة إلى البنية النفسية.

إن لكل رمز باعتباره بنية معرفية دلالةً معينةً، ومن فضاء هذه الدلالة تتم عملية توظيف هذا الرمز من خلال التجربة الشعرية التي هي تجربة وعي وفكر وفن ورؤية في آن.

(٢) حنا عبود: مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد ٢٤، تموز ١٩٨٦، السنة السادسة، ص ١١٧.

وعندما يُوظَّف الرمز بعيداً عن الفكر والفن والرؤية، فإنه لا يُشكّل إلا فضاء نصّياً لا امتداد له، أو لغة نصّية مفصولة عن العملية الفكرية والتجربة الإبداعية. وإذْ يدخل الرمز في بناء القصيدة، التي هي في نهاية المطاف مظهر اجتماعي وإنساني، فإنه يمحور هذه القصيدة حول طموح الجماعات الإنسانية ويركّز على ما يمنع هذه الجماعات من استشراف الفرح. فالقضايا الاجتماعية والإنسانية والحضارية حاضرةٌ دائماً في وعي الشاعر المبدع عندما يستخدم الرمز التراثي والأسطوري، ولا قيمة لرمز تراثي وأسطوري عائم، فضفاض، لا يرتبط إلا بحالة صاحبه الفردية والضيقة. ودراسة بُنية التراث والأسطورة في القصيدة المعاصرة تعني أن لا نكتفي بالقصيدة واعتبارها بُنية نهائية ومغلقة، ومن ثم ندرس هذه القصيدة دراسةً معزولةً عن الحقول المرجعية والروافد الثقافية الأخرى التي تغذّيها. فالتراث الأسطوري نفسه يحيل إلى التاريخ والأنثروبولوجيا الاجتماعية والفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع.

وكذلك فإن «النصوص وسياقاتها هي مادة أبحاث وتدريس في أكثر من ميدان علمي، علاوةً على اللسانيات والآداب». والنصوص تدرّس كذلك في علم النفس وعلم الاجتماع والفلسفة والأنثروبولوجيا واللاهوت، وفي العلوم القانونية والتاريخية. ومن البدهي أن ثمة جوانب أخرى للنصّ هي التي تُؤلّف موضوع الدرس في مختلف الميادين، يُضاف إلى ذلك أن الاهتمام قد يتناول بعض نماذج النصوص أو بعض الخصائص النوعية للسياق النفسي والاجتماعي. «غير أنه بالإمكان دراسة النصوص بصورة مشتركة بين عدة ميادين (Interdisciplinaire) وذلك، مثلاً، بتحليل الخصائص الأكثر عمومية التي تتصف بها النصوص واستعمال اللغة. وما أن يتم التحليل حتى يصير بوسعنا أن نتفحص عن كثب النقاط التي يمكن أن تتباين فيها النصوص من حيث البنية والوظيفة»(٣).

والقصيدة المعاصرة نصٌ مفتوح على أكثر من ميدان فكري، وبالتالي فإنها تُدْرسُ تحت ضوء كافة الحقول المرجعية التي تنهل منها وتشير إليها من تاريخ وتراث وأسطورة وغيرها.

وتتجلى أهمية البُعد التراثي والأسطوري في القصيدة المعاصرة بقدرته على أن يُعمّق وعينا بحركة التاريخ وطموح البشرية إلى مستقبل أكثر نظافة.

وتعمّق الوعي بالتاريخ والتراث والأسطورة لفهم دلالاتها الإنسانية دفع الشعراء إلى تجسيد هذا الوعي عبر تجربتهم الشعرية، ووعيهم هنا لم يعد فردياً وآنياً؛ إنه وعي تاريخي وإنساني للمجتمع والكون.

وبالتالي، فإنّ مكونات هذا الوعي، هي مكونات جمعية لها مصادرها وامتداداتها وخلفياتها المرجعية. فما من إشكالية أخذت حيزاً واسعاً في المساجلات النقديّة أكثر من إشكالية التراث باعتبارها محل خلاف وجدال بين أكثرية الباحثين والنقاد.

---

(٣) تون أ. فان ديجك: **النص بُناه ووظائفه**، ترجمة جورج أبي صالح مجلة العرب والفكر العالمي، بيروت، العدد الخامس، شتاء ١٩٨٩، ص ٦٣.

وأحياناً كثيرة نجد صعوبة في الفصل بين ما هو تراثي وما هو حداثي ومعاصر، وذلك نظراً للتداخلات الحادة بين الماضي والحاضر، بين النص التراثي كنص تشكل منذ قرون عديدة وبين نصّ جديد يتناصّ معه ويتداخل.

ولم يكن التراث يوماً ظاهرة مَرَضِيّة، بقدر ما كان بؤرة مركزيّة مشعّة ساهمت في إضاءة كثير من النصوص الشعرية المعاصرة.

ولكن هذه الإضاءة كانت محدودة، فبقيت تحت أجنحة المثقفين والمهتمين بالبحث التراثي والنقّاد.

إن غياب الفهم الواعي لحركة التراث يعني غياب فهم الخطاب الشعري المعاصر الذي يوظّف هذا التراث، وبالتالي النفور منه، واعتبار القصيدة المعاصرة نصّاً منغلقاً على نفسه من حيث إبهامه، لكثرة الرموز التراثية المعقّدة فيه.

ومن هنا، فإن الجماعات والتيارات التي ما فتئت تُهاجم القصيدة العربية المعاصرة وتقف موقف التنديد والعداء منها، لتثبت يومياً عجزها عن فهم حركة التاريخ المتنامية، وفشلها في منع الشمس من أن تشرق، والنوارس من أن تحلق عالياً باحثة عن المدى... والأفق المضيء.

صادر عن دار الطليعة

نظريات الشعر عند العرب

(الجاهلية والعصور الإسلامية)

د. مصطفى الجوزو

(طبعة ثانية)

□ كثيراً ما تساءل الباحثون والدارسون: أليس للعرب من نظريات أو مدارس شعرية غير تلك التي قبسوها حديثاً عن الغرب؟

□ وكانت الأبحاث العربية في هذا الصدد لا تشبع نهمهم ولا تشفي غليلهم لأنها، في أكثرها، منصبّة على النقد، وإذا ما عرضت لبعض قضايا النظرية الشعرية فإنها لا تحيط بها إحاطة كافية. ولهذا نجد الدراسات التي صدرت منذ عهد قريب وتناولت المدارس الأدبية، تمر مرّ الكرام بآراء العرب، وتحصر همّها بما أنتج الغرب، كأنما نحن ندرس الأدب الأوروبي لا العربي.

□ ولهذا كان هذا الكتاب الذي سيصدر في أجزاء، ويتناول النظرية الشعرية العربية منذ أن كانت بعد جنيناً ينمى، إلى أن استقام عودها وصلب.

□ ومع أن عدداً قليلاً من الدراسات المتعلقة بهذا الموضوع قد صدر باللغات الأوروبية، ولا سيما الفرنسية والألمانية، فإن بحثنا هذا يتفرد، على ما نشيم، بالتطرق إلى موضوعات بكر، والتوسع في قضايا لم تأخذ حقها من الدراسة.